الواقعية والفكر العربي المعاصر

بقلم سعدون حمادي

— ١ —

كتب الاستاذ عبد الله عبد الدائم مقالا في مجلة « الاداب » بعنوان : «أنسانية لا أممية » قرر فيه ان على القومية العربية « ان تحدد خطوطها وترسم معالمها رسماً واضحاً ، فقد أصبحت مطالبة بتكوين مذهب عربي واضح العناصر ، يقابل المذاهب الاخرى السائدة في العصر الحديث » (١) وقد اعترض الاستاذ عبد اللطيف شرارة على ذلك بما نصه : « فليس من المنطق في شيء ان نطالب الأمة العربية اليوم بمذهب يقابل الشيوعية مثلا ، او يقابل الوجودية ، فالامر ، أمر المذاهب الفكرية ، متروك بطبيعته ، وبالضرورة ، للامة الحرة الموحدة ولظروفها ، ولعبقريتها الخاصة ، ولا يجوز بمعنى من المعاني ، ولا بشكل من الاشكال ، ان تطلب الى احد ما ليس عنده ، او ما لا يمكن ان يعطيه ، في ظرف من الظروف . كل ما يمكن ان تطالب به الأمة العربية اليوم هو ان تكافح في سبيل أستقلال أوطانها ، وان تبذل ما وسعها البذل من أجل وحدة أبنائها ومقاومة أعدائها في داخلها وخارجها على السواء ، حتى اذا أستقام لها ان تتحرر ، وان تتوحد ، أنتجت من تلقاء نفسها ، ودون أن يطلب اليها ، أدباً جديداً ، وفلسفة جديدة ، ومذهباً جديداً ، تكون كلها تعابير عن العقل العربي ، والعبقرية العربية . » (٢)

يتضمن هذان النصان أختلافاً جوهرياً على مهمة الفكر العربي المعاصر . فالاستاذ عبد الدايم يرى ضرورة تكوين نظرية للقومية العربية ، بينما يرفض الاستاذ شرارة ضرورة وحتى امكانية ذلك . هذه هي نقطة الانطلاق لتوضيح الرأي في قضية دور الفكر في النهضة العربية ليتم لنا حد من التفاهم يساعد على معالجة الموضوع الأساسي .

*

يمكننا ان نعرّف الفكر ، بشكل عام ، بانه وسيلة اكتساب المعرفة ، وبكلمات اخرى انه اداة الوصول لحقيقة اي شيء من الاشياء . في السياسة والاقتصاد والكيمياء يحاول الانسان عن طريق الفكر التوصل الى معرفة عن الطبيعة والبشر بشكل تجزيئي مفصل ، وهو بالتالي يحاول فهم معنى الكون ككل يضم تلك الاجزاء . والمعرفة تختلف بسهولة الوصول اليها ، فهناك امور يسيرة الادراك لبساطتها ولتراكم المعرفة عنها خلال الأجيال ، وهناك امور معقدة متشابكة العناصر تحتاج الى كثير من التأمل والتفكير المنظم . والفكر الذي هو عملية تكوين المعرفة يسلك طريقين مختلفين في تحقيق ذلك هما : الاحساس والعقل . وهنا لا بد من توضيح موجز لهذين الكلمتين . الاحساس هو الطريق اللاعقلي او السابق للعقل . انه تلك المقدرة في الانسان على الوصول للمعرفة عن طريق الشعور ، الذي يتطلب مستوى معيناً من الارهاف والاستعداد النفسي ، وبكلمة اخرى هو طريق الالهام . الفرد الحاد الاحساس الذي بلغ درجة عالية من الاستعداد النفسي والتأمل والاندماج بموضوع تأمله يستطيع ان يرى احشاء الحوادث ويدرك حقائق الاشياء . عن طريق الاحساس يستطيع الفرد المهيأ ان يرى شكل المستقبل عن طريق الحاضر . فالتطور الاجتماعي ليس مجرد صدف عمياء بل تبدل منطقي في الحياة . اي ان له أسبابه ومراميه ، يستطيع الفرد الممتاز ان يستشفه من خلال نسيج الحاضر ، كما تستطيع الابصار القوية رؤية طلائع النور خلال ظلام السحر . وما النبوة ألا درجة عالية من هذه المقدرة على ادراك حقيقة الكون والحياة ، وما الوحي الا الصورة المادية المجسدة لعملية الوصول للمعرفة عن هذا الطريق . .

اما طريقة العقل فأهم ما يميزها هو التنظيم في التفكير ، الذي يتضمن عمليات متعددة كجمع المعلومات الاولية وتنسيقها وتصنيفها ثم إخضاعها للتحليل ثم استنباط النتائج وجمعها لتكوين قانون او نظرية . كذلك تتميز هذه الطريقة بالاختصاص ، اي محاولة الوصول لحقائق الاشياء عن طريق الفهم التام المتسلسل للاجزاء بتقسيمها الى مواضيع متعددة تدرس كل منها على انفراد . وباختصار ليس المقصود بطريقة العقل هنا غير النظرية التي هي جهاز للتحليل اي لمعرفة نوع العلاقات القائمة بين العوامل المكونة للموضوع ؛ ومعرفة نوع العلاقات تعني : معرفة السبب والنتيجة ، والسبب المهم والاهم ، والنتيجة الاولى والنتيجة الثانوية ، والعوامل الاصيلة والعوامل الدخيلة ، والتفريق بين المؤثرات الايجابية والمؤثرات النفسية ، ومعرفة المقابلة في التأثير بين العوامل ، وغير ذلك من العلاقات التي تتضمنها الظاهرة المطروحة للدرس . واختلاف النظريات في اعتماد بعضها على الاستقراء المباشر والبعض الآخر على الاستنتاج المنطقي لا يغير شيئاً من جوهرها المشترك هو كونها اجهزة لاكتشاف نوعية العلاقات القائمة بين الظواهر . والنظرية ، لذلك ، جهاز مجرد ومستقل عن موضوع الدراسة ؛ فنظريات الفلك لم تتكون الا بانصباب النظرية كجهاز مجرد على مادة معينة للدرس هي الاجرام السماوية ونظرية المنافسة الحرة ليست إلا نتيجة أخضاع العلاقات الاقتصادية في المجتمع الرأسمالي للنظرية أو العلم النظري .

وبعد شرح طريقي تكوين المعرفة على انفرادلابد من توضيح العلاقة بينهما . ليست العلاقة بين الاحساس والعقل علاقة منافسة ، لاناي واحد منهما لا يمكن استبداله بالاخر ولا ان يسد مسده ؛ فلا مفاضلة ولا مقارنة تقييمية تصح في بحث العلاقة بينهما . العلاقة القائمة بينهما تكميلية وليست تفضيلية ، اي أن الاحساس والعقل يكمل لا ينافس أحدهما الآخر . عن طريق العقل يحاول الفكر تفسير ذلك الشعور وابراز منطقه ودراسة تفاصيله بشكل منظم . كذلك الاحساس والعقل يعدل أحدهما الآخر : فالاحساس الذي يوفر شعوراً ذاتي

(١) الآداب — العدد التاسع — ايلول ١٩٥٥

(٢) الآداب — العدد العاشر — تشرين الاول ١٩٥٥ .

الخطوط الرئيسية لهذه الدراسة

الهدف الرئيسي لهذه المقالة هو وضع خط اساسي للنظرية القومية العربية هو الواقعية كمبدأ منهجي. وقد جرى توضيح ذلك حسب التسلسل الفكري التالي:

١ – الفكرة الرئيسية الاولى تتعلق بنظرية المعرفة، وخلاصتها ان الفكر هو الوسيلة الوحيدة لتكوين المعرفة، بطريقيه العقل والاحساس، وان المعرفة المكونة عن الكون ليست تامة لأنها غير مباشرة بل خلال الاشكال التي يصنعها الفكر ويفرضها على الجوهر، وان هذه المعرفة غير المباشرة هي غاية ما يستطيع الانسان الوصول اليه. وذلك يعني ان النهضة العربية الحاضرة حتمية في حدوثها وطوعية في تحديد اتجاهها.

٢ – تنتج عملية التطور في التاريخ عن تغلب تدريجي لقوة الحق المطلق المجرد الصاعدة عن قوة الاضمحلال والفساد النازلة. وقوة الحق المطلق المجرد هذه هي الجوهر الذي لا يستطيع الفكر ادراكه الا عن طريق الاشكال، وهي التي تحرك النهضة العربية الحاضرة.

٣ – الفكر الذي تنحصر مهمته في تحديد اتجاه النهضة لا يستطيع ان يكون واقعياً الا بالاعتماد عن العوامل الايجابية الداخلة في صياغة الاهداف وتقييم الاوضاع المتأخرة، وبذلك يتجنب الخيالية والانهزامية على السواء.

٤ – وبضوء هذه النظرة الواقعية يبرز الاتجاه الجديد في السياسة العربية كظاهرة طبيعية منسجمة مع التطور لأنها جزء من النهضة الحتمية الكبرى التي تنتظر المجتمع العربي. لذلك وجب التفاؤل في استقبالها والعمل لتقويتها.

عاماً بأتجاه التطور يضع الاسس الرئيسية لبناء النظرية ويحدد جوهرها. ولكن عملية تكوين النظرية بذاتها وبما تنطوي عليه من استقراء للحقائق وجمع للمعلومات واخضاعها للتمحيص والتنسيق والتحليل قد تعدل بعض جوانب الصورة التي عكسها الاحساس. وهكذا يكون التأثير المتبادل مساعداً على تنقية النظرية من الاخطاء.

الصفة الأخيرة هي ان المعرفة عن طريق الاحساس غالباً ما تسبق المعرفة عن طريق العقل، الامر الذي تدل عليه التغييرات الكبرى في التاريخ كالثورة الفرنسية والانقلاب الصناعي وظهور الاسلام.

بناء على هذا التحديد لمضمون الكلمات الثلاث: الفكر والاحساس والعقل، يتوضح لنا اولا ان الفكر والعقل ليسا شيئاً واحداً كما هو متعارف عليه، لأن الفكر يشمل العقل ولكنه لا يساويه؛ وثانياً أن الاحساس والعقل لا يناقض بل يتمم أحدهما الآخر. لذلك تفقد المقارنة التقليدية بين العقل والاحساس او بين العلم والايمان معناها. الفكر هو عملية تكوين المعرفة عن طريق الأحساس بشكل شعوري عام، وعن طريق العقل الذي يصوغ نظرية لتفسير وتوضيح ذلك الشعور بشكل تفصيلي منظم. الايمان والعلم شيئان مختلفان في طريقة الوصول للمعرفة فقط ومتحدان في الجوهر وهو تكوين المعرفة.

بذلك تنتهي هذه المقدمة التي كان غرضي منها ان اقول بأن القومية العربية كحركة تاريخية قد اجتازت مرحلة المعرفة عن طريق الاحساس، اي مرحلة تفتح الوعي ويقظة الروح، وأنها اليوم بحاجة الى دخول مرحلة العقل لتكوين نظرية تفصح عن الروح بتحليل الواقع العربي وتوضيح تفاصيل المجتمع الجديد ووسائل تحقيقه، اي ان تكون للقومية العربية نظرية. وهذا برأيي ما قصده اليه الاستاذ عبد الدايم.

– ٢ –

في هذه المقالة سنحاول وضع الاسس لخط واحد في نظرية القومية العربية هو واقعيتها. الواقعية كمبدأ منهجي تحتاج، اول ما تحتاج، لتحديد نظري. وأرى ان التحديد المطلوب لا يمكن انجازه قبل تحليل ظاهرة النهضة العربية التي هي موضوع النظرية. فلنبدأ بالتحليل.

العنصر الاول في ظاهرة النهضة مثالي يعبر عنه الحكم على الاوضاع الراهنة على أنها باطل يجب تبديله بما هو حق. فالنهضة كعملية تبديل جذري في حياة المجتمع العربي يقف وراءها مبدأ خلقي يعطيها اتجاها وغرضاً، بدل أن تكون حركة عمياء غرضها الحركة فحسب والتبديل الذي لا صفة له. نحن لو سألنا أياً من العاملين في حركة الاصلاح عن المبرر لتبديل الوضع الراهن، وصلنا في النهاية الى جواب جوهره الرغبة في ازالة الهوة بين ما هو كائن وما يجب ان يكون: كل الفئات السياسية او اكثرها تبرر وجودها – ان هي سئلت عنه – بأنها تريد احلال العدل محل الظلم، والحرية محل العبودية، والكرامة محل الذل والوحدة محل التجزئة، والاستقلال محل الاستعمار.. الخ من المتعاكسات التي تفترض وجود مثال أعلى وهدف سام بينه وبين الموجود فرق يجب ان يزول. والنزعة للحق التي تحرك النهضة عندنا ليست في مصدرها غير جزء من كل عام وواسع يشمل الكون هو الحق المطلق المجرد. ويمكننا ان نعرّف الحق المطلق بانه القوة التي تسري في الكون في اتجاه صاعد للاصلاح والتعمير والرقي، والتجميل والتنظيم يعاكس التيار النازل للافساد والتهديم والانحراف والتدهور والتشويه والفوضى. هذه القوة، الخيرة مطلقة بمعنى أنها شاملة وازلية لا تخضع لمنطق السبب والنتيجة بذاتها، اي أنها ليست نتاج قوة اخرى. وهي مجردة بمعنى أنها عنصر واحد متماثل، عندما يملك قوالبها يتحول الى عدل وحرية ومساواة.. الخ. من مسميات ما نطلق عليه اسم المثل العليا.

الفكر بطريقيه، الاحساس والعقل، لا يستطيع معرفة هذا العنصر بذاته، أي اننا لا نستطيع إثبات وجوده. وان كنا نعرف عنه شيئاً فذلك خلال الاشكال التي يتخذها. ومعرفة كهذه ليست مباشرة ولا تامة لأنها ليست عن كنه الشيء بل خلال الاشكال التي يتقمصها الشيء. نحن ان فحصنا الحياة لا نستطيع ان نجد الحق المطلق المجرد بل ما يدل عليه.

اينما التفتنا في الكون وجدنا ظواهر طبيعية واجتماعية تكون بمجموعها قوة مساعدة. اشعة الشمس تقتل الجراثيم وتزيل العفونة وتساعد النبات على النمو والتغذي، ومعدة الجمل واقدامه تتكيف بظروف الصحراء، والسمكة يتكيف جهاز التنفس فيها لتستطيع العيش في الماء، والشجر في المناطق الباردة يحمل اوراقاً ابرية تقاوم الصقيع، والريح تحمل مواد اللقاح من نبتة لاخرى ليتم الاتحاد، ودم الانسان يحوي كريات بيضاء تقاوم الجراثيم الداخلة للجسم،

والجهاز الهضمي مزود بغدد تفرز موادتساعد على هضم الطعام، وحيوان ضعيف كالغزال يملك حاسة للسمع قوية ومقدرة على العدو عظيمة ليحمي وجوده، والقنفذ يختبيء داخل جلده الابري حيث لا تستطيع الافعى لسعه ، والمياه التي تغور في الارض تتفجر ثانية ينابيع وآباراً، والغابات التي تطمرها الزلازل تظهر ثانية بشكل فحم ينفع الانسان . والهواء يحوي اوكسجيناً ينقي الدم الفاسد في عملية التنفس ، والانسان يملك العقل والاحساس ليكتسب معرفة عن الحياة وليميز الخطأ من الصواب ، وتاريخ البشرية مليء بالثورات على الظلم والاستثمار، والحركات الاصلاحية لتعديل الخلف كلما انحرف وتقويم السلطة كلما شذت، والحد من تمادي الافراد والجماعات في الاستثمار والربح الحرام والتراث الحضاري ليس الا تراكماً لدفعات تقدمية في الاخلاق والاختراع والتنظيم وزيادة الانتاج ومكافحة الامراض وتخفيف آلام الاجهاد العضلي والعقلي في العمل والتصنيع وايجاد بضائع وخدمات جديدة ومسليات والعاب للترويح ورفع مستوى المعيشة والتوسع في التعليم والثقافة والابداع في الفن والادب واصلاح او تبديل النظم السياسية والاجتماعية والمؤسسات الفكرية وتطوير العادات والتقاليد الى الأحسن. في سير التاريخ اتجاه واضح للحق، فالأمم المجزأة تكافح لتتحد ، والامم المستعمرة تتحرر ، والنظم الاقتصادية تتطور في اتجاه العدل، والحريات المدنية والاجتماعية تزداد تأكيداً ورسوخاً واتساعاً . الخلاصة هي ان تركيب الكون يحوي ظواهر تدل على الحق المطلق المجرد هي : النظام الفيزياوي في الطبيعة وتكييف التركيب الفسيولوجي في الانسان والحيوان والنبات للظروف وملكة الفكر في الانسان والتقدم الحضاري.

بقي أن نوضح نقطتين لازالة الالتباس . اولاهما ان القول بوجود الحق المطلق المجرد في الكون لا يعني انه الاتجاه الوحيد اوان الطبيعة البشرية تامة الصلاح ولا أي شيء من ذلك، اذ من الواضح ان بجانب الحق باطلا متمثلا في الذبول والاضمحلال والقسوة في الطبيعة ، وبجانب نزعة الخير في الانسان الظلم والاستثمار والانانية والخمول . انني بالطبع لا اقصد في هذا المجال خوض موضوع الخير والشر في الكون، فكل ما يهمني قوله هنا هو ان الكون يحوي ، ضمن ما يحوي ، اتجاهاً واضحاً للخير . ثانياً يجب التفريق بين قضية وجود الحق المطلق المجرد وبين كونه قانوناً طبيعياً وقدراً يحكم الكون . الحق المطلق المجرد محتوم فقط من حيث وجوده وفعاليته وتفتحه في الانسان والطبيعة وحفزه التقدم، ولكنه ليس قانوناً طبيعياً يحدد نمط التطور ، لأن ذلك يتطلب حتمية في الشكل . وجود الحق المطلق المجرد يقرر التقدم لا شكل التقدم، فالمجتمعات تتقدم حتماً ولكن ذلك لا يعني أنها سائرة نحو نظام سياسي وأقتصادي واجتماعي واحد .

اذن فالعنصر الاول في النهضة العربية الحاضرة أخلاقي مستمد ومتفرع من الحق المطلق المجرد الموجود في الكون . انه الطريق الذي يربط هذه النهضة بالانسانية . فنحن عندما نقول بان القومية العربية أنسانية نعني أنها مظهر للحق المطلق المجرد وشكل من اشكاله . عن هذا الطريق — لا غيره — ترتبط الأمة العربية بالعالم ارتباطاً ذا معنى وأهمية .

العنصر الثاني في النهضة هو الشكل . قلنا عن الاشكال أنها القوالب التي عندما ينصب بها الحق المطلق المجرد يتحول الى مبادئ واهداف اجتماعية كالعدل والحرية والمساواة .. الخ ، وقلنا كذلك أنها الظواهر التي نتعرف خلالها على ذلك العنصر . والآن نتفرغ لبحث هذا الموضوع بشيء من الاستفاضة .

تشكل صياغة هذه الاهداف عنصراً أساسياً في عملية النهضة ، اذ بها يتحدد بالضبط التغيير الذي يتطلبه الانتقال من الوضع المتأخر الى الوضع السليم ، وبدونه تبقى النهضة مجرد شعور بضرورة التغيير دونما معرفة بماذا يجب ان يعمل ليتم ذلك. وبصياغة أهداف النهضة تتحدد الأعمال الواجبة التنفيذ لتحقيق النهضة وتتوضح المواضع الستراتيجية لصب الجهود . ولكن كيف وعن اي طريق تتحدد الأهداف ؟ هذا سؤال لاشك مهم .

وارى أن أهداف النهضة تتحدد عن طريق الفكر . يستمد الفكر مادته لصياغة الاهداف من التجربة التاريخية التي عاشتها الامة . فنحن ان رجعنا للتاريخ وجدنا أن الفكر في عملية تكوين قوالب مستمرة نتيجة لتفاعله مع الظروف والحوادث . وهذه القوالب تتبلور وتصقل بمرور الزمن وتتراكم على شكل تقاليد وعادات فكرية ومقاييس وقيم وطرائق في السلوك ترسخ في النفوس وتنطبع في الأذهان . لذا كان لكل امة عاداتها وتقاليدها ومقاييسها الخلقية ومثلها العليا ، التي ليست في الحقيقة غير أشكال صاغها الفكر بمرور الزمن لتعبر عن رأي الانسان في السلوك الحسن والذوق السليم والخلق الرفيع .. الخ... النهضة بما تتضمنه من تنشيط الفكر، تجلو الصدأ عن هذه القوالب والأشكال وتغوص عليها في أعماق النفس ، فيبدأ التذكر للماضي ومحاولة ادراكه وبذا ترجع الامة تدريجياً للاتصال الحي بتأريخها وينساب اليها تراثها حتى تلتحم به . فهدف الوحدة العربية مثلا ليس غير شكل فكري مستمد من الشعور التاريخي بالانتماء لامة معينة .

وبالاضافة للتراث القومي، هناك الظروف الحاضرة التي تكون مصدراً آخر مكملا يستمد الفكر منه مادة يصوغ منها الاهداف . والعملية هنا ليست احياء وتذكراً، بل هي تحليل موضوعي للظروف لتوضيح السبب والنتيجة في علاقاتها واستخلاص بعض الحكمة. فلنأخذ قضية الوحدة العربية كمثل للتوضيح : إن الفكر العربي يستطيع ان يرى بعد التحليل وعلى صعيد عملي — مساوئ التجزئة واثرها المباشر في اضعاف الامة سياسياً بتحويلها لدويلات صغيرة لا يملك اكثرها المقومات الاساسية للدولة ، تترعرع فيها عوامل مالكة وفئات سياسية محترفة ترتبط مصالحها في المال والحكم والنفوذ بالوضع فتدافع عنه وتكلسه وتخلق لتبريره النظريات ، فيؤدي ذلك الى ضعف سياسي يصل حد العجز عن الدفاع عن الكيان ،وتدهور أقتصادي هائل . كذلك يستطيع الفكر ان يتبين بالتحليل الموضوعي الاضرار العملية لضعف الحرية في العمل السياسي والنشاط الاجتماعي والفني وتكبيل الفرد بقيود قانونية واجتماعية ثقيلة كهدر الجهود والطاقات الفردية وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي وضياع الثقة بين الشعب والحكومة .

المصدر الثالث في صياغة الاهداف تجربة العالم وخبرته . لقد قامت في العالم فلسفات بنيت على اسسها نظم اقتصادية وسياسية وقوانين طبقت واعطت نتائج معينة يمكن ان يعتصر الفكر العربي منها معرفة عن التطور الاجتماعي وملابساته ومشاكله . لنأخذ النظام الرأسمالي مثالا. فان الباحث يستطيع اليوم ان يصل الى نتائج على درجة عالية من الصحة العلمية، فهو عندما يدرس تجربة النظام الرأسمالي في الغرب يجد ان هذا النظام قد ادى الى زيادة كبيرة في الانتاج وتقدم هائل في الاختراع والتنظيم وارتفاع في مستوى المعيشة ، ولكنه بجانب ذلك جر أستغلال وارهاق الطبقات الفقيرة كالعمال والفلاحين في البداية ، وتفكيك المجتمع وتدهور الخلق وازدياد الجرائم والامراض العقلية والانقسام الاجتماعي والتفاوت الكبير في توزيع الثروة والاضطراب الاقتصادي نتيجة للدورات التجارية . والباحث يلاحظ كذلك ان المجتمعات الغربية قد بدأت محاولة اصلاح هذه العيوب عن طريق تشريع قوانين للترفيه عن الطبقات الفقيرة واعادة توزيع الثروة والاشراف والتنهيج الاقتصادي .

إن الفكر العربي اليوم لا غنى له عن هذه التجارب في تحديد هدف النهضة في الناحية الاقتصادية .

اذن هناك التراث القومي للامة ومقتضيات الظروف العملية وتجارب الامم الاخرى كلها مجتمعة تكون مصادر المادة التي يصوغ منها الفكر الاشكال ويقدمها كأهداف للنهضة ، وسلامة تلك الاهداف تتوقف على مقدرة الفكر على فهم التراث القومي وتحليل ظروف الامة الحاضرة وتقييم تجارب الامم الأخرى

*

العنصر الأخير في هذا التحليل هو مجموعة الاوضاع الفاسدة التي تعيشها الأمة من اقتصادية وسياسية واجتماعية وفكرية . لنبدأ مناقشة هذا الموضوع بتوضيح علاقة المؤسسات بالاوضاع الاجتماعية .

المؤسسة نظام يحدد تصرف مجموعة من الافراد بناحية من نواحي الحياة . وهذا النظام قد يعتمد على قانون مشرع او تدبير اجتماعي طوعي او مجرد وضع فكري معين . فالدولة مؤسسة تحدد بعض أسس العلاقات والتصرف لأفرادها وكذلك النقابة والشركة والجامعة والعائلة والكنيسة والنظام الاقتصادي والنظام السياسي. وبضمن المؤسسة تتحدد حقوق وواجبات الفرد ونوعية علاقته بالآخرين وطريقة تصرفه في هذا او ذاك الموقف . وباختصار : المؤسسة جهاز لتنظيم فعالية الافراد . والذي يهمنا من امر المؤسسات هو علاقتها بالتطور الاجتماعي الموضوع الذي زاد الاهتمام به حديثاً حيث برزت في اوساط الفكر قضية دور الحكومة في الاعمار او الاستقرار الاقتصادي والعمالة التامة وقضية علاقة اصلاح نظام استغلال الارض واصلاح الجهاز الاداري بالاعمار الاقتصادي . وقضية أثر نقابات العمال ومنظمات ارباب العمل والفنيين على الاستقرار الاقتصادي ثم قضية استعمال الدولة كأداة لتثبيت فلسفة معينة كما هو الحال في الاتحاد السوفياتي .

تدل نتائج البحوث في علم الاجتماع وتطور الحضارات ان المؤسسات ، وان كانت باصولها نتاج الفكر ، الا انها بعد ان تؤسس وتثبت تصبح ذاتها مؤثراً اجتماعياً ، اي ان المؤسسات تشكل قوى اجتماعية ايجابية وان كانت لا تقرر التطور كلياً لكنها تؤثر فيه. إن المؤسسات بوضعها أطاراً للسلوك تؤثر في السلوك نفسه وبتحديدها قواعد لفعالية الافراد تؤثر في نوعية الفعالية ، وبتقريرها الجو الذي يجري فيه التفكير تؤثر في التفكير . وبفعل هذا التقابل في التأثير بين الاطار ومحتوياته يستمر الاثنان يعدل أحدهما الآخر حتى يتحقق وضع من الانسجام بين اتجاه المجتمع ومؤسساته . فمن المعروف ان التقدم الاجتماعي الصاعد من الاعماق الى فوق يؤدي الى اصلاح المؤسسات ، والمؤسسات الصالحة بدورها تساعد على زيادة التقدم. كذلك الفساد الاجتماعي العميق يؤدي الى فساد المؤسسات ، والمؤسسات الفاسدة بدورها تولد المزيد من الفساد .

اذا ما انتقلنا من البحث العام للتخصيص ، وفحصنا الاوضاع السائدة في المجتمع العربي اليوم ، وجدنا ان هناك نسيجاً سميكاً من الفساد الممتد افقياً ليشمل كل نواحي الحياة وعمودياً ليشمل التفكير والسلوك الفردي كمحتوى والمؤسسات كأطار . وبما انني لست معنياً هنا بموضوع اسباب الفساد ، لذلك سأتابع البحث على اعتبار انه موجود لأوضح نوعية ارتباطه بعملية النهضة .

الذي يهمنا معرفته عن هذا الوضع الفاسد هو :

اولا انه وان كان منسجماً مع نفسه — الا انه متناقض من حيث علاقته بحركة الحق المطلق المجرد المتبلور باهداف النهضة . اي ان الاوضاع الفاسدة الحالية تشكل قوى ايجابية منسجمة مع بعضها ولكنها بمجموعها معاكسة للنهضة وانها قوة تسحب للخلف ونسيج اجتماعي متخلف عن مقتضيات التطور .

وثانياً انه وضع يدور حسب نظام ، اي انه ذو منطق معين ، لذلك فهو يمكن ان يخضع للدراسة الموضوعية التحليلية . هذا هو المجال الثاني لنشاط الفكر . فالفكر عن طريق العقل يتخذ من هذه الاوضاع الايجابية مادة يخضعها للبحث النظري المجرد ليربط قطعها بخيوط المنطق ويكسبها معنى بتوضيح نوعية العلاقات القائمة بينها ، وبكلمات مختصرة ليكون معرفة عن السبب والنتيجة والاهم والمهم كما بينا في المقدمة . ومهمة كهذه تتطلب دراسات موضوعية لمختلف نواحي المجتمع العربي في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والنفس والتربية والتعليم والصحة تعتمد على الارقام والمعلومات الدقيقة المفصلة .

هكذا يكون الفكر معرفة عقلية مفيدة عن الوضع الراهن ، ويكون بذلك قد أدى مهمته الثانية في عملية النهضة . بذلك ينتهي هذا التحليل الذي قلنا عنه في بداية هذا القسم بأنه ضروري لتمهيد الطريق لتحديد مضمون الواقعية في الفكر العربي المعاصر ، الموضوع الذي سنبحثه مباشرة في القسم التالي من هذه المقالة .

— ٣ —

يمكننا ان نلخص نتائج التحليل السابق بنقطتين : الاولى هي ان النهضة العربية الحالية تعبير عن نزوع الامة العربية للحق المطلق المجرد ، والثانية هي ان دور الفكر ينحصر بتحديد اهداف النهضة وتحليل الوضع الاجتماعي المتأخر . ومن ذلك يتضح بأن مناقشة الواقعية كمبدأ منهجي ستنصب على النقطة الثانية — اي على الجزء الفكري من عملية النهضة .

الواقعية في الفكر تعني اول ما تعني ان يستند تحديد الأهداف على كشف للرغبات الاصيلة في الامة والتعرف على العوامل الاساسية في تكوين تلك الرغبات ، اي ان تكون صياغة الاهداف محكمة الاتصال بالتراث العربي ومقتضيات الظروف الحالية للامة وتجارب الامم الاخرى ، لا بمعزل عن ذلك . والركن الثاني في الواقعية هو التعرف التحليلي على الظروف الاجتماعية القائمة والتقييم الصحيح لاثر هذه القوى الايجابية في عرقلة النهضة .

وبجمع هاتين النقطتين في أطار واحد يمكننا ان نقول بان الواقعية تعني أن يجري تكوين نظرية القومية العربية بضوء العوامل الايجابية المتعلقة بالنهضة .

تبدأ نظرية القومية العربية كأي نظرية اخرى بفرضيات يستخلصها الفكر من الصورة العامة التي كونها عن حقيقة المجتمع العربي بطريق الاحساس . وبقدر ما تكون هذه الصورة واقعية تكون النظرية التي تستند عليها . فلأجل ان تكون نظرية القومية العربية واقعية يجب ان تستوحي فرضياتها الاولى من حقائق المجتمع العربي لا الخيال الشارد في الفضاء او مجرد الاعتقاد المصنوع بمعزل عن الحقائق الاجتماعية . ونظرية القومية العربية يجب ان تكون واقعية لا بفرضياتها فقط بل بمنطقها أيضاً ، الامر الذي يتطلب استقراء مستمراً للواقع للمحافظة على معقولية النتائج ، لأن البحث المنطقي بذاته قد يوصل لنتائج منحرفة اذا جرى بمعزل عن حقائق المجتمع . ولتجنب ذلك لابد من الاستعانة بالاستقراء كمعدل ومصحح للاستنتاج . من المعروف في تاريخ الفكر ان هوبز يحتل مكاناً عالياً من حيث الضبط المنطقي لنظريته ، ولكن هوبز قد وصل عن طريق الاستنتاج المنطقي البحت لاعتبار الدكتاتورية الفردية النظام الامثل للبشر ، وهي نتيجة منحرفة اثبت التاريخ خطأها . ومن المعروف كذلك ان نظرية لوك في القانون الطبيعي والعقد الاجتماعي دون نظرية هوبز منطقاً وانسجاماً لأحتوائها على بعض الفجوات وحتى المتناقضات ، ولكن المؤرخين يفسرون ذلك بان لوك كان على علم بتلك المتناقضات وانه اضطر للتضحية بالانسجام المنطقي ببعض الاحيان ليبقى وثيق الأتصال بواقع الحياة مما ساعد كثيراً على خروجه ببعض النتائج المعقولة الصحيحة .

واعتماداً على هذا التحديد النظري ، سنحاول مناقشة بعض الامثلة مما يكتب ويقال في المجتمع العربي اليوم لنبرز بالضبط مضمون الواقعية .

الاتجاه الذي نطرحه للمناقشة لا يتجسد بنظرية معينة ، بل يتخذ شكل نمط

في التفكير تشترك به فئات مختلفة وافراد موزعون، منهم السياسي والصحفي والتلميذ والكاتب . هناك الميل عند البعض لتبسيط قضية القومية العربية لدرجة تصبح بها مجرد نية صادقة وارادة قوية لتحقيق بعض الاهداف كالتحرر من الاستعمار وتوحيد الوطن العربي واسترجاع فلسطين مثلا . هم يتكلمون وكأن الاهداف محددة والمشكلة واضحة والطريق معروف . ومقطع الاستاذ شرارة المثبت في المقدمة مثال ممتاز على ذلك . فهو اولا تبسيط متطرف لعملية النهضة، واضح في تحديد أهدافها ببضع كلمات هي استقلال الوطن ووحدة الابناء ومقاومة الاعداء في الداخل والخارج . النهضة العربية اليوم لا تعني أقل من تغيير حياة العرب بكاملها ، وحياة العرب — ككل الحياة — معقدة ومتشابكة العناصر ، تتفاعل فيها تجربة وتراث التاريخ الطويل مع مجموع الاوضاع الراهنة مع كل ما ينتج من علاقتها بباقي العالم . لا الواقع العربي اليوم ولا عملية تغييره ولا ما سينتج عن التغيير أمور واضحة لا تحتاج للتفصيل ولاهي بديهيات لا تحتمل المناقشة والاختلاف ، بينما الاهداف التي حددها الاستاذ شرارة ليست الا أسماء فقط لتغييرات اساسية يجب أحداثها في المجتمع العربي: ان كنا قد عرفنا صلاحها بصورة مبدئية فنحن لازلنا نجهل محتوياتها وتفاصيلها. إن النهضة العربية الحاضرة تتطلب معرفة تتناسب ومستوى القضية في التعقيد ، وذلك يفوق كثيراً ، في الاتساع والدقة ، تلك الكلمات القليلة العامة .

كذلك هناك خطأ في فهم التسلسل في التطور الاجتماعي . اذ ليست النهضة حدثاً يقع خارج نطاق الانسان حتى اذا تحقق أنعكس في الفكر البشري وحركة لانتاج مذهب فلسفي او ادب او فن ، بل العكس : فالنهضة تغيير صاعد في الحياة ينتج عن تحرك الحق المطلق المجرد خلال الانسان حيث يحدث الانقلاب الفكري . لا المنطق وحده بل التاريخ يثبت ذلك . فالحضارة العربية في العهد العباسي تقف وراءها الثورة الفكرية التي احدثها الاسلام ، وحضارة الغرب اليوم تمتد جذورها في الاصلاح الديني والثورة الفرنسية واحياء التراث اليوناني والرقي الفلسفي والادبي والفني الذي بدأ في القرن السادس عشر. صحيح ان الاوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية السليمة الناتجة عن النهضة تهيىء الجو وتحفز على النمو الفكري ولكن ذلك يبقى بطبيعته نمواً لمتابعة النهضة ومعالجة المشاكل التي تنتج عن الاوضاع الجديدة . اما عملية النهضة كدفعة اولى من وضع راكد فتحتاج — كشرط سابق — انقلاباً فكرياً . اذن فاللاواقعية في رأي الاستاذ شرارة تتمثل في تبسيط قضية النهضة لحد يقصر عن ابراز عناصرها الأساسية .

هناك من يتجاهل تركيب الواقع الاجتماعي تماماً ويسقط مفعول القوى الايجابية المعرقلة للنهضة من الحساب . فرئيس الجمهورية في سوريا يصدر بياناً يدعو فيه لاتحاد وطني يدخل في اطاره جميع العاملين في الحقل السياسي، ليقفوا جبهة مرصوصة أمام المطامع الاستعمارية والصهيونية العالمية ، ويضمن للوطن ما يعوزه من استقرار دائم وحكم نزيه وطيد ووضع شرعي سليم » (١) سياسي عربي كبير يريد ان يحقق أهدافاً كبرى كالوقوف بوجه الاستعمار والصهيونية والاستقرار الداخلي والحكم النزيه والوضع الشرعي السليم بتدابير ووسائل عاطفية ضعيفة « كتناسي الماضي وسخائمه والاعتبار بعبره » . هذا الرأي الواضح في طول مجلة الصياد (٢) اللبنانية وعرضها يمكن تلخيصه بثلاث نقاط : اولا ان تعدد الاحزاب في سوريا مشكلة خطيرة ، ثانياً ان سبب ذلك اختلاف رجال الاحزاب لتنافسهم على الحكم والنفوذ ، ثالثاً : الحل هو تصافي رجال الاحزاب ورجوعهم الى رشدهم ونبذ الانانيات وتناسي الاحقاد ووضع المصلحة العامة فوق المصالح الخاصة .

لنسهل المناقشة بهذا السؤال : هل يمكن اعتبار ظاهرة الاختلاف الحزبي في سوريا اليوم شذوذاً في اطار الاوضاع الحاضرة ؟ انني اميل للسلب في الجواب. فان وجود اكثر من حزب في سوريا ليس ظاهرة واقفة في الهواء من تلقائها، منفصلة عن اديم الاوضاع الاجتماعية ، انها ليست اختلافاً وسط أنسجام وانشقاقاً سياسياً في مجتمع متماسك، بل ظاهرة ذات رصيد مادي ملموس في المجتمع، هو الازمة الحادة المتولدة من سريان تيار النهضة في وضع متأخر راكد حيث يولد القلق الفكري والانقسام والصراع في صفوف الشعب . في المراحل الاولى من التقدم تصبح قضية الجديد والقديم الشغل الشاغل فتختلف عليها الآراء والتفسيرات وتولد التجمعات الشعبية من مدافع عن القديم لمصلحة او لاعتقاد ومبشر بالجديد ومتوسط يحاول الجمع بين الاثنين . اذن فالاصح هو ان ننظر الى الخلاف الحزبي الموجود كنتاج مشكلة اجتماعية ترقد وراءه لا كمشكلة مستقلة بذاتها. إن الرأي المطروح للمناقشة يحتمل أحد تفسيرين، الاول هو انه يرى الاختلاف الحزبي على انه شذوذ لا مسبب له غير اختلاف اراء ورغبات رجال الاحزاب فيما بينهم وعندها تكون لاواقعيته ناتجة عن اغفال كلي لعملية النهضة الجارية الآن ونظرة سياسية كهذه — تعتبر ان المجتمع العربي الحاضر سليم الصحة متقدم لا نقص فيه. غير ان هذه الظاهرة النشاز — تصل بنظري — حد السطحية .

الاحتمال الآخر هو ان هذا الرأي يرى وجود الازمة الاجتماعية وراء الاختلاف الحزبي ، ولكنه حتى في هذه الحالة يبقى ضعيفاً . اذا كان اختلاف الاحزاب مظهراً لازمة اجتماعية عميقة فهل من المعقول ان يكون علاجها مجرد الدعوة للتصافي ونبذ الانانيات ونسيان الماضي ..؟ وهل ينفع اللوم والبكاء شيئاً في حالة كهذه ؟ انا لا اعتقد بذلك . ويجب الملاحظة هنا بانني لا اعني بان الاتفاق الحزبي غير ممكن، فهو قد تحقق الآن في سوريا ، ولا بأنه غير نافع ، كل ما اريد ان اقوله هو ان الاتفاق الحزبي لا يمكن ان يحقق الاهداف الكبرى التي يتوقعها ويتحدث عنها اصحاب هذا الرأي .

في كلا الحالين ينطوي هذا الرأي على لاواقعية في التفكير تتمثل إما في التشخيص او في العلاج .

وهذه جريدة (بيروت) تنشر افتتاحية بقلم الاستاذ محيي الدين النصولي بعنوان « يتفقون علينا ونحن لا نتفق » جاء فيها : « قلنا منذ أشهر ان الغربيين يعدون لنا خططاً لحل قضايا الشرق الاوسط ، وفي طليعتها قضية فلسطين ، ورغبنا الى المسؤولين العرب ان ينبذوا خلافاتهم، وان يشنوها حملة تصاف لا مثيل لها تعيد المياه الى مجاريها فيما بينهم واقترحنا اجتماعاً عاماً ينتظم فيه عقدهم ، ويتدارسون مشاكلهم ، ويبحثون بروح الاخوة والتعاون .. ولكن المسؤولين العرب ، سامحهم الله ! انقسموا الى قسمين مختلفين! قسم أجتمع في القاهرة وقسم اجتمع في مكان ما من الحدود العراقية الاردنية .. » (١)

كثير من الناس يقرأ ذلك فيرتاح لحرارة هذه الدعوة الخيرة لوحدة الصفوف ونبذ الخلافات ومواجهة العدو بيد قوية واحدة ، ويبدي اعجابه وتقديره لاخلاص الكاتب وغيرته على المصلحة القومية، لان ما يريده الاستاذ النصولي يريده كل عربي مخلص . ولكننا لو تأملنا قليلا بهذا المقطع وسألنا انفسنا ، او الاستاذ النصولي السؤال التالي : هل المهم في السياسة العربية الحالية ، ان نعرف ان وحدة الصفوف لمواجهة الاخطار الخارجية أمر نافع محمود، ام كيف يمكن ان تتحقق تلك الوحدة ؟ أيهما أهم : ان نعرف ان الخلاف بين

(١) بيان السيد شكري القوتلي الصادر في آب ١٩٥٤ .

(٢) يمكن قراءة هذا الرأي في التعليقات عن الوضع في سوريا في اعداد الصياد المرقمة ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٤ ، ٦٢٢ .

(١) « بيروت » — ٦ ايار ١٩٥٦ .

الحكومات العربية موجود أم أسباب ذلك الخلاف ؟ أني أرى بان وجوب وحدة الصف امر يثبته المنطق البسيط وتجربة السنين الماضية ، ولذلك لا حاجة ولا نفع من جعله القضية الاساسية. الامر المهم هو ان نفهم تعقيدات وتفاصيل وملابسات وحدة الصف ، اي ان نفهمها كقضية لا مجرد كلمة . الخلاف بين الحكومات العربية ليس بالامر الجديد ولا هو عارض سببته الصدف او تقلبات أهواء ورغبات الاشخاص الحاكمين بل هو نتاج المشكلة العميقة في المجتمع العربي : مشكلة التخلف . وحدة الصف الصحيحة مرهونة بقضية النهضة ، لا يحققها اجتماع المسؤولين العرب في مكان واحد ولا يؤخرها اجتماعهم في مكانين . وأن رأي الاستاذ النصولي يتضمن لاواقعية يدل عليها — ضمناً — نظرته للخلاف بين الحكومات العربية على انه ظاهرة فردية لا اجتماعية ، واغفاله أثر القوى الايجابية المعرقلة للنهضة التي يتصاعد منها الخلاف .

بقي علينا الآن ان نتطرق للحلقة الاخيرة في هذا البحث ، وهي المفهوم الشائع "واقعية". فكثيراً ما نسمع ان هذا السياسي واقعي في تفكيره ، وذاك خيالي مثالي ويكون المقصود — غالباً — ان الاول لا يتصلب في مطالبه ويقبل بحلول الوسط ، وان الثاني لا يجزئ المطاليب ولا يتساهل بالمفاوضة . يقال هذا الكاتب واقعي ، انه يعترف بوجود الاستعمار وقوته وسيطرته ويرى التأخر الاجتماعي من فقر وجهل ومرض لذلك فهو لا يؤمن بالطفرة ولا يطلب الكثير . والواضح من ذلك هو ان كلمة الواقعية في هذا المفهوم تأخذ معناها من الواقع ، الذي يعني مجموعة الاوضاع الاجتماعية الراهنة . فالواقعية في السياسة تعني — على هذا الاساس من الفهم — العمل ضمن امكانيات الواقع وحدوده .

ونحن لو نظرنا الى هذا الرأي بضوء التحليل السابق لعملية النهضة والتحديد النظري للواقعية أتضح لنا بان هذه الواقعية الشائعة ترتكز على فهم ناقص لقضية النهضة . فالنهضة كعملية تغيير تجري الآن في المجتمع العربي تتركب — كما بينا — من ثلاثة عناصر : الحق المطلق المجرد والاشكال التي تبرز بشكل اهداف وقوى ايجابية تكون الواقع الفاسد اي ان للنهضة جانبين : الواقع الفاسد من جهة وارادة الحق من جهة أخرى . الواقعية الشائعة لا ترى بالنهضة غير الجانب الاول . اما الاهداف فليست الا ما يمكن تحقيقه بضمن الواقع . اي ان الجانب الثاني مشتق من الجانب الاول : ما يجب ان يكون ، مشتق مما هو كائن .

نحن نعرف الآن مما فات من المناقشة ان الواقع الفاسد مكون من قوى ايجابية تعمل باتجاه معاكس للنهضة ، وانها بمفعولها العام تزيد الواقع فساداً ان خذت بمعزل عن تأثير التيار المعاكس الجديد . الواقع بحد ذاته فقير لا يسمح لتقدم مهم لذلك فاتخاذه نقطة الابتداء لا ينتج غير اصلاحات سطحية طفيفة سرعان ما يبتلعها فساد الواقع المتزايد. ان هذه الواقعية التي تحاول ان تجعل أقضية النهضة مجرد درس علمي للواقع الفاسد تصل منطقياً للانهزامية لا لشيء الا لأنها تستمد منه المقاييس .

— ٤ —

تم لدينا الآن تحديد نظري للواقعية عموده الفقري تكوين معرفة صحيحة ومفيدة عن العوامل الايجابية الداخلة في عملية النهضة : تلك التي تتعلق ببلورة الاهداف وتلك التي تكون النسيج الاجتماعي المتأخر .

في هذا القسم من البحث سنحاول كشف الجانب العملي للواقعية ، اي استعمال التحديد النظري في مناقشة السياسة العربية الحاضرة . وعلى وجه التخصيص سينصب البحث على ظهور الجبهة العربية المتحررة .

شهد العام الاخير بروز بعض معالم الاتجاه الجديد ، بشكل ملموس ، فقد توضح ان هناك محاولة جدية لاحداث : تغيير اساسي في السياسة الخارجية والعلاقات العربية والاوضاع الاجتماعية ، فبرزت قضية الحياد الايجابي ، والوحدة العربية ، واصلاح الاوضاع الاجتماعية . وتضمنت هذه التغييرات صفقة السلاح مع الاتحاد السوفياتي والاعتراف بالصين الشيوعية وتأميم شركة قناة السويس والاصلاح الزراعي في مصر ، والتقدم في الصحة والثقافة والتصنيع وتقوية الجيش في سوريا ومصر ، وتوحيد القيادة العسكرية بينهما ثم بين مصر والسعودية واليمن ، والاتفاق العسكري بين الاردن ومصر والوحدة الاقتصادية بين سوريا والاردن ، والغاء جوازات السفر بينهما ، ثم مشروع الاتحاد بين مصر وسوريا . واخيراً اتفاقية التضامن العربي للاردن .

السؤال الاول الذي نريد الاجابة عليه هو : كيف أتيح لهذه الخطوات ان تتحقق ؟ منذ بداية هذا القرن والتسلسل التاريخي يدل على وجود عملية تكوين تدريجي لخطوط المجتمع العربي الجديد . اذ من الملاحظ على التطورات والاحداث والافكار التي برزت خلال السنوات الاخيرة ان البعض منها فاقد للارتباط متناثر ، في حين ان البعض الآخر يكون مجاري واضحة يمكن متابعتها في التسلسل التاريخي . فنحن نلاحظ انه بالرغم من كل العقبات المادية والتشويش الفكري الذي احدثته النظرية العالمية والافكار الاقليمية والدينية الاتوقراطية بقيت النزعة للوحدة العربية ثابتة مصرة على البقاء تحاول دوماً ايجاد المخارج من الازمات وتزداد قوة ووضوحاً بمرور الزمن ، في حين أنحسرت امواج الاتجاهات العالمية والاقليمية والدينية الاتوقراطية بعد ان كانت قد طغت بوقت من الاوقات وآمن البعض باصالتها وازدهار مستقبلها . يوماً بعد يوم نلاحظ ان الاتجاه نحو الوحدة العربية يفرض نفسه في مجالات الحياة المختلفة : الاحزاب القومية والجمعيات التي تؤسس على نطاق عربي في الداخل والخارج ، والصحف والمجلات والكتب ووسائل النشر والاتصال تعمل في نطاق قومي ، والفن والسينما والادب اصبحت عربية في نشاطها ، والاتفاقيات الاقتصادية لتخفيض الرسوم الكمركية والغائها بالتدريج وزيادة حرية العمل والاتجار والاستثمار في كل البلاد العربية والغاء السمات والجوازات وتأسيس اتحاد غرف الصناعة والزراعة والتجارة العربية والمساهمة السياسية في شؤون كل قطر من قبل الاقطار الاخرى ، والمهرجانات والاجتماعات والمؤتمرات العربية وازدياد السياحة والاختلاط والزواج بين ابناء الامة العربية . في هذه المجالات وكثير غيرها يتوضح وجود تيار يدفع نحو الوحدة .

ومن الملاحظ على تطور الفكر العربي ايضاً انه يعتبر الحرية مطلباً اساسياً مرتبطاً بالوحدة . ففي نفس الحقبة التاريخية التي تبلور بها هدف الوحدة العربية تتابعت حوادث وتطورات تدل على اصالة مطلب الحرية ؛ فالشعور القومي العربي في الهزيع الاخير من عمر الدولة العثمانية قد رافقه المطلب السياسي الذي تمثل بالمطالبة بالدستور . وتاريخ الحكم الوطني في سوريا والعراق والاردن ومصر وبقية اجزاء البلاد العربية حافل بحوادث الاصرار على مطلب الحرية. الاصلاح البرلماني في سوريا الذي جعل الانتخابات على درجة واحدة واسقاط مشروع تحديد جريات الانتخاب والكتابة والصحافة المسمي بمرسوم رقم (٥٠) وفشل تجربة الحكم الدكتاتوري والعسكري ، والتقدم في توسيع حريات الانتخاب والكتابة والصحافة الذي احرزته سوريا في السنوات الاخيرة . وحركة الاصلاح السياسي في الاردن لجعل الوزارة مسؤولة امام البرلمان ومقاومة قانون الدفاع والتدخل في الانتخابات ، ونمو حركة المطالبة بالحكم الدستوري في البحرين وحتى المملكة السعودية وكلها حوادث تشكل بمجموعها خطاً عريضاً يشير الى اصالة هدف الحرية في عملية النهضة . ومن الملاحظ في هذا الصدد أختلاف تطور الفكر العربي عما حدث في الغرب ، اذ بينما اقترن ظهور الدولة القومية في الغرب بالنظام الملكي المطلق الذي قام على اخضاع النبلاء والاكليروس والامراء لحكومة مركزية واحدة نلاحظ ان الاتجاه نحو

الوحدة العربية يرافقه ميل واضح للحكم الديمقراطي الجمهوري .

الرافد الثالث الذي يغذي الاتجاه الجديد في السياسة العربية هو الشعور العميق بضرورة تحقيق ازدهار أقتصادي واخضاع ثماره للعدل . هذا الاتجاه له ما يدل عليه في تاريخ السياسة العربية الحديثة. ففي سوريا اليوم كما في لبنان وتونس حركة عمالية ذات وزن وهي آخذة في التبلور والنمو ، وفي مصر تحقق نوع من الاصلاح الزراعي وضع حداً اعلى لملكية الارض ، وفي البلاد العربية ككل تنمو اليوم فكرة جعل الدولة مؤسسة للترفيه عن الطبقات الفقيرة والسيطرة على النمو الاقتصادي بتقديم الخدمات والمساعدات مجاناً في حقول الثقافة والصحة والاسكان والتدريب الفني والمهني وتولي الدولة شؤون المصالح العامة كالمواصلات والماء والكهرباء والبريد والبرق والاذاعة والري والصناعات الحيوية وتأميم موارد الثروة الكبرى ، هذا بالاضافة الى نمو رأي عام متمثل باحزاب سياسية أصبح لبعضها كيان شعبي وسياسي .

الخلاصة هي انني – وان كنت لا استطيع الاستفاضة في هذا الاستقراء التاريخي – ارى ان تطور النهضة العربية الحاضرة يسير على هذه الخطوط الثلاثة. واعتقد ان سبب ظهور هذا التطور أصيل لأنه صادر عن ارادة الحق المطلق المجرد ، وان اتخاذه هذا الاتجاه المعين ناتج عن واقعية الفكر في صياغة اهداف النهضة. كل ذلك يعني ان الاتجاه الجديد مستند على قاعدة اجتماعية قوية : فهو ليس صدفة تاريخية أوصلت للحكم افراداً ذوي اخلاص ونزاهة ولا مجرد اتفاق اراء ورغبات الحاكمين . أنه حلقة في التطور لها ما يسبقها وما سيأتي بعدها ، انه نتيجة طبيعية لتطور المجتمع العربي في الاتجاه الذي حددنا خطوطه العريضة وانكشافاً لبدء تغلب القوة الدافعة على القوة الجاذبة في عملية النهضة . نحن نعرف بان هذا التطور الجديد لم يولد الا بعد حدوث تغييرات اساسية في الاقطار العربية التي تتبناه كسوريا ومصر . ففي سوريا تقوم اليوم تجربة الحكم القومي التقدمي بعد الصراع العنيف الذي فشلت به عملياً الديمقراطية المستغلة العاجزة اولا وبعدها على الدكتاتورية الفردية ، وفي مصر تجري تجربة هذا الحكم بعد القضاء على الملكية والبيروقراطية والاقطاعية . انني ارى ان اقتران هذه التغييرات بظهور الاتجاه الجديد لا يمكن ان يكون مجرد صدفة عابرة .

بقي علينا ان نحدد النتائج العملية التي تترتب على هذا التفسير الواقعي لظهور الاتجاه الجديد . واعتقد ان التفسير الذي قدمناه يوصل الى نتيجتين :

اولا : نظراً لان التطور المذكور طبيعي وأصيل لانه بداية وجزء من النهضة المنتظرة لا مجرد صدفة عابرة، وجب على الفئة الواعية ان تنظر له بتفاؤل وثقة وتعمل على توضيحه للشعب واستغلال كل ما به من امكانيات تطورية وحمايته من امواج الواقع الفاسد المحيط به ، وان تجعل من ذلك المقياس للحكم على صلاح او فساد الحكومات .

ثانياً : رفض النظر له كانقسام في الصفوف وتفريق للكلمة ، لأنه ليس ذلك الانقسام الذي يحدث في وضع سليم بل نتيجة حتمية للنهضة لا يمكن اجتنابها. فالوحدة الحقيقية ليست ذلك الجمع الفيزياوي للجديد والقديم والحق والباطل بل التي تنتج عن تغلب الجديد وأنتصار الحق حيث يتوفر الانسجام الحقيقي .

سعدون حمادي

جامعة ويسكانسن (الولايات المتحدة)

الجدار

« ... الى أمي والصغيرة التي أحبها »

إني أرى في عينك الجدارْ
يمتدّ ظلّه الحنون طيبةً تشيعْ
في قلبك الرقيق
فيحجب النهار
عن ناظري .. فلا أرى الطريق
حيث يضيءُ دربنا ألف دم صديق
فنحن من أعصابنا .. من دمنا الهريق
نلوّن النهـــار
ونحن – يا صغيرتي – نعمل للصغارْ
لعينك السحرية البريق
وللعيون اللائي يزرعن الدجى انتظار

* * *

سيطلع الفجر غداً .. وأنت تحلمينْ
بالفجر والاندى والشعاع
النور عند جارنا مشاعْ
وللعصافير على جدارنا صراعْ
وأنت تحلمينْ
تحت ظلال الحائط اللعينْ

* * *

صغيرتي .. لا يطلع النهـارْ
في سطحنا .. ما دام يثوي ذلك الجدار
في قلبك الأمين

. . . . . .

جيراننا كان لهم جدارْ
يحجب عنهم – مثلنا – أشعة النهـار
لكنهم قد فهموا القصة باختصارْ ..
وحطّموا الجـدار ...

البصرة – العراق

محمد سعيد الصكار